الفصل الأول

أهمية التفكر

حقيقته وثمرته التذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. **قال الحسن البصري**: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكُّر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت(١).

اعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثَمَّ مواد تكون موردًا للفكر؛ استحال لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب حاصلًا عنده لم يتفكر فيه، فإذا عُرِفَ هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه(٢).

وثبت عن بعض السلف أنه قال: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة.

وسأل رجل أم الدرداء عن أبي الدرداء - بعد موته - عن عبادته فقالت: كان نهاره أجمع في تأدية التفكر.

وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال الفضيل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكر فقال: الفكر مخ العقل(٣).

(١) «تهذيب المدارج» [٢٣٧]، ط: المكتبة القيمة.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٠).

(٣) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: شغل العقل التفكر والنظر في عواقب الأحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب [صيد الخاطر ٤٣٦].

Obeikandl.com

وكان سفيان كثيرًا ما يتمثل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[الأعراف: ١٤٦]. قال: أمنعهم التفكر فيها.

وقال بعض العارفين: لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة؛ لم يصف لهم عيش ولم تقربهم عين.

وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكرًا: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بشير: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة .وعقوبة لأهل الولاية والفكرة في الآخرة؛ تورث الحكمة، وتجلي القلب.

وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة.

وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح. وأيضًا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد؛ فإن التفكر يوجب له انكشاف حقائق الأمور وظهورها له

obeikandl.com

تمييز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها، وبين السبب المانع حقيقة؛ فيشتغل به دون الأول.

فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها -بل بحرها- الذي لا تنفك سابحة فيه؛ وإنما يقطع العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميِّز بين الوهم والحقيقة.

وكذلك إذا فكر في عواقب الأمور وتجاوز فكرة مباديها؛ وضعها مواضعها، وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكر لذته وشهوة وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك لا يكاد يقدم عليه.

وكذلك إذا ورد قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام التي في مباديها بالنسب إلى كمال عواقبها. وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليها معاناتها واستقبلتها بنشاط وقوة وعزيمة.

وكذلك إذا فكر في منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره؛ استحيا من عقله ونفسه أن يكون عبدًا لذلك كما قيل:

لَـوْ فَـكَّـرَ الْـعَـاقِـلُ فِي مُنْتَهى ... حُسْنِ الـذي يسْبِيهِ لَمْ يُسْبِهِ

وكذلك إذا فكَّر في آخر الأطعمة المفتخرة التي تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام وما يصير أمرها إليه عند خروجها؛ ارتفعت همته عن صرفها إلى الاعتناء بها وجعلها معبود قلبه الذي إليه يتوجَّه وله يرضى ويغضب ويسعى ويكدح ويوالي ويعادي[١].

والخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجة للتفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم، فإن كل من علم شيئًا من المحبوب أو المكروه، لابد أن يبقي لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من عمله، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل. فها هنا خمسة أمور: الفكر وثمرته العلم، وثمرته الحالة التي تحدث للقلب وثمرة ذلك الإرادة وثمرتها العمل. فالفكر هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا يكشف لك فضل التفكر وشرفه وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

فالفكر هو الذي ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة ومن المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله التجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور.

وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هي الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة[٢].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٩-٢٨١)، ط: التوفيقية.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٨٤-٢٨٥).

أنفع الفكر:

وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وطرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار ويليها أربعة:

فكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا، وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء، ورأس القسم الأول الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاها، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها والدنيا ودومها مر في الدنيا وخستها وفنائها؛ أثمر له ذلك الرغبة في الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت. وهذه الإفكار تعلي همته بعد موتها وسفولها وتجعله في واد والناس في واد[١].

وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وبوحدنيته، وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه به، فبهذا تعَّرف إلَى عبادة وندبهم إلى التفكر في آياته[٢].

النظر في آيات الله:

النظر في آيات الله نوعان:

الأول- نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلًا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر.

---

(١) «الفوائد» [٢٢٢].

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩١).

الثاني- أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيخول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة[(١)]. ويرى الملائكة حافِّين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسير وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة الملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم لعدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها، واتحاد قوتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنتقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيبته خاشعًا لعظمته، عانٍ لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد.

فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره[(٢)].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، فضل العرش على الكرسي كفضل تلك الحلقة على تلك الفلاة**» رواه ابن أبي شيبة وابن جرير وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٠٩].

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

التفكر مفتاح الخيرات كلها:

الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، ومثال ذلك إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترب من الآفات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذتها ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين؛ أثمر له ذلك علمًا ثالثًا وهو أن الآخرة ونعيمها الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المستعصية أثمر له في معرفة الآخرة حالتان:

إحداهما: أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه بَرْدَ اليقين به ولم يفض قلبه إلي مكافحة حقيقة الآخرة وهذا حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان: أحدهما داعي العجلة وإيثارها وهو أقوي الداعيين عنده، لأنه مشاهد له محسوس وداعي الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده؛ لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ولا كافح حقيقته العلمية فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلومًا لمظنون أو متحققًا لموهوم فلسان الحال ينادي عليه: لا أدع ذرة منقودة لدرة موعودة، وهذه الآفة هي التي منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وأن يسعى لها سعيًا وهي من ضعف العلم به وتيقنها، وإلا فمع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك ولا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها.

ولهذا لو قُدِّمَ لرجل طعام في غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل: له إنه مسموم؛ فإنه لا يقدم عليه لعلمه بأن سوء ما تجني عاقبته تناوله تربو[1] في المضرة على لذة أكله، فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة؟! ماذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب وعدم استقرارها فيه.

(١) تربو أي تزيد.

وكذلك إذا كان سائرًا في طريق فقيل له: إن بها قطاعًا ولصوصًا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه؛ فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين: إما أن لا يصدق المخبر، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم وإلا فمع تصديقه للمخبر تصديقًا لا يتمارى فيه، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم، فإنه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلمان فمهما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك، فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبدًا.

الحالة الثانية: أن يتيقن ويجزم جزمًا لا شك فيه بأن له دارًا غير هذه الدار ومعادًا له خلق، وأن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين إليه، ويعلم مع ذلك أنها باقية، ونعيمها وعذابها لا يزول، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة للآخرة[1] فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وأن يسعى لها سعيها وهذا يسمى تفكرًا، وتذكرًا ونظرًا وتأملًا واعتبارًا، وتدبرًا واستبصارًا وهذه معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتتفرق في آخر، فيسمى تفكرًا، لأنه استعمال الفكر في ذلك وإحضاره عنده، ويسمي تذكرًا، لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ويسمى نظيرًا؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه ويسمَّى تأملًا؛ لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

ويسمى اعتبارًا؛ وهو افتعال من العبور؛ لأنه يعبر منه إلى غيره من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمَّى عبرة وهي على بناء الحالات

(١) عن المستورد بن شداد أن النبي ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه؛ فلينظر بم يرجع» رواه مسلم برقم [٢٨٥٨]

كالجلسة والقتلة إيذانًا بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالًا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[يوسف:١١١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾[النازعات:٢٦]. وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.

[النور:٤٤]

ويسمى تدبرًا؛ لأنه نظر في إدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها، وفيه تدبر القول قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾[المؤمنون:٦٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظرة مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعُّل كالتجرُّع والتفُّهم والتبيُّن.

وسمي اسبتصارًا وهو استفعال من التبصير وهو تبينٌّ الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة.

أنواع التفكر وأعلاها:

أعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله؛ فهو أنواع:

أحدها- الفكرة في آياته المنزلة وتعقُّلِها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة، **قال بعض السلف:**أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملًا.

الثاني- الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبره وجوده وقد حضَّ الله سبحانه عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقُّلِها وذم الغافل عن ذلك.

الثالث- الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله محبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصب غ القلب في المعرفة والمحبة صحبة تامة.

الرابع- الفكر في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع وهي باب لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء. ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت وصار الحكم لها فحيى القلب، ودارت كلمته في مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس- الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها؛ فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا.

قال الشافعي: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: **أحدهما** قولهم الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك وذكر الكلمة الأخرى: ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل.

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من مر السحاب، فمن كان وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته وإن عاش فيه عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له إلا ما عقل منها؛ فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله، وما عدا هذه الأقسام من الخطرات

والفكر فإما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والموسوسين[(١)].

تَأَمَّلْ فِي سُطُورِ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا ... مِنَ الملاء الأعلى إِلَيْكَ رَسَائِلُ

وَقَدْ خَطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ ... وَتَحْرِيكَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[(٢)]

(١) الداء والدواء [٢١٦-٢١٨] ط ابن رجب.

(٢) مفتاح دار السعادة(٢/ ٩٥-٩٦).

obeikandl.com